المحاضرة: ملامح الحياة العلمية من خلال النصوص النوازلية سنة أولى ماستر تاريخ تخصص تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

سجلت النصوص النوازلية كثير من الحقائق عن الحياة العلمية في المغرب الإسلامي.

1- **دُور العلم:** يظهر من بعض النوازل والفتاوى، أن المرحلة الأولى التي يلتقي فيها الصبي بالمعلم أو المربي، تسمى بالمكاتب أو الكتاتيب، حيث تبدأ بالنسبة للطفل عند سن التمييز بين الخامسة والسادسة، إذ أن المعلم يعلمه القراءة والكتابة وحفظ أجزاء من القرآن الكريم وتجويده، وكذلك يتعلم الصبي اللغة والنحو الفقه. ويذكر الونشريسي أن جرت العادة في بلاد المغرب، أن يرسل الوالد مع ابنه عند إتمام حفظ القرآن هدية للمعلم، تتمثل في مبلغ مالي، ويكون ذلك في المناسبات الدينية، بل كان هناك من يستأجر معلما لتعليم ابنه.

وقد كانت هناك فتاوى تحث المعلمين على النظر في الألواح وإصلاح الأخطاء، وإعراب القرآن وحسن قراءته، زيادة على ذلك كان المعلم يستشير الولي عند ضرب الولد خاصة، إذا اتصف هذا الأخير بسلوك غير لائق.

وتذكر بعض الفتاوى أنه لا يشترط على المعلم أن يحصل على إجازة من شيخه، "لأن التعليم كالفتيا لا تتوقف على إجازة، بل من عرف عنه العلم والدين، جاز أن يعلم أو يفتي".

وبعد أن ينهي التلميذ تعليمه في المرحلة الأولى، ينتقل إلى المرحلة الثانية أو الأعلى، حيث يتلقى العلم في أحدى دُور العلم كالمسجد والزاوية والمدرسة، وقد كان المسجد من أهم مراكز العلم، حيث يوجد الفقهاء والعلماء والطلاب، كما كانت الزاوية من أهم المؤسسات العلمية في المغرب.

2- **المكتبات (خزائن الكتب)** : خُصصت في كثير من مدن وحواضر المغرب الإسلامي، وخاصة في تونس و فاس و سبتة، حيث كانت توجد في هذه الأخيرة 62 خزانة، كما توجد في جامع الزيتونة بتونس، وقد اشتهرت فاس من بين المراكز الهامة، بكتب الفقه المالكي وغيرها من الكتب ، إضافة إلى أن حواضر المغرب الإسلامي، اشتهرت بأسواق الكتب الغنية بعلومها ومعارفها وفنونها، وكانت عملية الشراء تتم بالمزايدة، عن طريق الدلاّل حتى يصل إلى أعلى سعر.

3- **العلماء والفقهاء والأسر العلمية:** اشتهرت بلاد المغرب الإسلامي بالعلماء والفقهاء، والأسر ذات المكانة العلمية، وقد أشار الونشريسي من خلال النوازل والفتاوى الفقهية، إلى العديد من الشخصيات العلمية والفقهية، ومن أمثلة ذلك: الفقيه علي بن عبد الحق الزرويلي (أبو الحسن الصغيّر)، والفقيه عبد العزيز بن موسى الورياغلي، وعبد الرحيم بن إبراهيم اليزناسني قاضي مدينة فاس سنة 812هـ/1409-1410م، ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز قاضي مكناسة سنة812هـ، وابن الضابط السفاقسي مفتي سفاقس، الذي قتله النصارى عند إغارتهم على المدينة (543هـ/1148-1149م)، والإمام المحدث بن مرزوق(ت.842هـ) والفقيه الفشتالي قاضي فاس، كما أنه أعطى تراجم لبعض العلماء والفقهاء، أمثال الفقيه الشريف

التلمساني، وأبي زيد عبد الرحمن التازي، وابن البقال، بالإضافة إلى بعض الأسر العلمية الشهيرة في المغرب، ومن أمثلتها بني ابن صاحب الصلاة من أعيان تلمسان، وأسرة العقباني بتلمسان (القرن8هـ/14م)، وبني اليزناسني بفاس[1].

إن كتب النوازل شكلت منبعا يستقي منه الباحثون من شتى العلوم والمعارف، بل الاطلاع على معلومات دقيقة في ممارسة الحياة اليومية لمجتمع الغرب الإسلامي، وبذلك فهي تعكس لنا واقعا عاشه الفرد والمجتمع، انطلاقا من العلاقات الأسرية من زواج وطلاق وميراث، ومختلف العلاقات الاجتماعية الأخرى، كما أنها تنقلنا إلى حياة الأسواق، وما يجري داخلها من بيع وشراء، وغيرها من المعاملات الأخرى، بالإضافة إلى علاقات العمل والتكافل الاجتماعي من نفقة وصدقة، وكل ما له علاقة بخدمة المجتمع، بل أنها تأخذنا إلى النشاط الفلاحي والحرفي والتجاري وحتى العمراني، دون إهمال الجانب الديني والمذهبي، وما يصاحبه من اعتقاد وتطرف وإحداث البدع وغيرها، كما أنها تنتقل مرة أخرى إلى ميدان المعارك، إضافة إلى إشارتها إلى مواسم الفيضانات ومواسم القحط والجفاف، وما ينجم عنه من مجاعة وأمراض وأوبئة. بمعنى أن كتب النوازل مرآة عاكسة لحياة المجتمع في جميع المجالات[2].